العرب
السبت 2020/04/04
السنة 42 العدد 11667

الاتحاد الأوروبي: أزمة بنيوية واختبار وجودي

د. خطار أبو دياب
أستاذ العلوم السياسية، المركز الدولي للجيوبوليتيك - باريس

مرت على أوروبا عبر تاريخها العديد من المحن والحروب. ولم تكن " القارة القديمة" فقط موئل الاستعمار ونماذج الهيمنة بل كانت كذلك بؤرة التنوير والنهضة والثورتين الفرنسية والصناعية. بيد أنه بعد سبعة عقود على السلام والاستقرار، أتى زمن كورونا ليكشف الخلل الكبير في الاتحاد الأوروبي الذي أظهر هشاشته وانقساماته في مواجهة الكارثة الصحية.

وكما بدت روما وبرلين وباريس ولندن كأنها مدن "خاوية على عروشها"، لم تكن الماكينة البيروقراطية للاتحاد الأوروبي في بروكسيل على مستوى جسامة الحدث، ولم يبرز استعداد ألمانيا الدولة الاقتصادية الأقوى في أوروبا للتضامن كفاية مع إيطاليا وإسبانيا الدولتين الأكثر معاناة.

وفي نفس المسار الأناني، تعقد الانقسامات التوصل لاتفاق حول خطة استنهاض اقتصادي يتم فيها تقاسم الأعباء في مواجهة الكساد المنتظر. ومن هنا يضاف إلى الأزمة البنيوية التي تضرب البيت الأوروبي المشترك خطر وجودي إذا لم يتم الاستدراك في الوقت المناسب وحينها يفقد الاتحاد مبررات البقاء ويقود ذلك إلى سيناريوهات أكثرها إيجابية إعادة الصياغة من أجل تفادي التفكيك أو انفراط العقد ونهاية المغامرة الأوروبية.

يجدر التذكير بأن الاتحاد الأوروبي شهد بعد الأزمة النقدية العالمية أوضاعا مماثلة من الانقسامات. بعد التماسك والتضامن مع الولايات المتحدة لإنقاذ الاقتصاد العالمي والأسواق في خريف العام 2008. لكن التباعد أخذ يبرز مع اهتزاز دول في جنوب أوروبا وخاصة اليونان، وحينها حصلت في 2010 أزمة كبرى للديون في منطقة اليورو (دول الاتحاد المعتمدة للعملة الأوروبية المشتركة) وأبدت دول من شمال أوروبا تحفظها إزاء كلفة إنقاذ اليونان، لكن الضغط الفرنسي أثمر مرونة ألمانية أسهمت في صياغة خطة طموحة من أجل اليونان ومنطقة اليورو.

لكن ذلك لم يحجب أزمة هوية وأزمة بنيوية في البناء الأوروبي سرعان ما فجرتها أزمة اللجوء الكبرى في 2015 وما رافقها من صعود شعبوي والتصويت البريطاني لصالح البريكست مما شكل منعطفا وضع الاتحاد ومؤسساته على المحك.

وبالرغم من أن المؤسسة الأوروبية تعاملت بتماسك مع خروج لندن، لكن الأزمة الكامنة والمؤجلة تعززت مع فشل الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون منذ 2017 في إقناع المستشارة الألمانية أنجيلا ميركل بمشروع استنهاض لاتحاد أخذت تصيبه سهام إدارة دونالد ترامب ونيران الكرملين في آن معا. وهكذا تأكد مع الوقت الكسوف الأوروبي على المسرح الدولي في موازاة بروز الثلاثي الأميركي – الصيني – الروسي في حقبة من التخبط الإستراتيجي على صعيد الأداء والمفاهيم والانعكاسات.

ضمن هذا السياق، بدأ زمن كورونا يجتاح القارة القديمة ويذكّر سكانها بحقب سابقة تخللتها أوبئة مدمرة أبرزها الطاعون والأنفلونزا الإسبانية منذ قرن من الزمن. وكانت المفاجأة السيئة بسوء إدارة الأزمة وعدم وجود البنية الصحية التحتية الضرورية ، مما هشم صورة بعض الدول والاتحاد مع التساؤل عن إخفاق القطب التجاري والاقتصادي البارز في تطوير إستراتيجية مواجهة الكوارث وسياسات صحية ووقائية وغياب السيادة الاقتصادية بالإضافة إلى الانكشاف الإستراتيجي أمام مظلة الحماية الأميركية.

مقابل النظرة النيوليبرالية والنظرة الأرثوذكسية النقدية اللتين تعتبران الاتحاد الأوروبي مجرد سوق تجاري مفتوح ونفعي، أخذت تزداد المخاوف من انهيار كل مكاسب البناء الأوروبي

من هنا كان افتقاد الاتحاد ودوله الغنية في المقام الأول لموجبات التضامن مع إيطاليا في المقام الأول وقيام الصين وكوبا وروسيا بمبادرات تضامنية ودعائية مما زاد من الهوة بين الرأي العام الإيطالي والفكرة الأوروبية. ووصل الأمر إلى التغطية على التقصير الأولي الفاضح، قيام رئيسة المفوضية الأوروبية بتوجيه رسالة اعتذار إلى الإيطاليات والإيطاليين ومطالبة رئيس الوزراء الإيطالي جوزيبي كونتي بأن يكون الاتحاد الأوروبي من الآن وصاعداً أكثر "طموحا ووحدة وشجاعة". وعلى نفس المنوال طالب الرئيس ماكرون مرارا الاتحاد بتطوير خطط تضامن عاجل ونتيجة هذا التحرّك كشفت كريستين لاغارد حاكمة المصرف المركزي الأوروبي عن حزمة إجراءات وقروض وخطة طوارئ تصل إلى حوالي 750 مليار يورو، مع عدم احترام سقف 3 في المئة لعجز الميزانيات الوطنية.

ونظرا لاستمرار رفض هولندا وتحفظ ألمانيا اعتماد برنامج متكامل للتعافي بعد أزمة كورونا، سيتم التعويل على "الآلية الأوروبية للاستقرار المالي" وهي كناية عن صندوق خاص لدعم الاقتصاديات المتعثرة ضمن منطقة اليورو.

هكذا مقابل النظرة النيوليبرالية والنظرة الأرثوذكسية النقدية اللتين تعتبران الاتحاد الأوروبي مجرد سوق تجاري مفتوح ونفعي، أخذت تزداد المخاوف من انهيار كل مكاسب البناء الأوروبي. وصدر الإنذار الأبرز من الرئيس الأسبق للمفوضية الأوروبية الفرنسي جاك دولور (94 عاما) الذي خرج عن صمته وحذّر من مخاطر الشرخ بين الجنوب والشمال في أوروبا ومن " الخطر المميت" الذي يحيق بالاتحاد في حال لم تهب كل الدول المعنية لإبراز تضامنها.

وتخشى الكثير من الأوساط الحريصة على ديمومة المشروع الأوروبي من محاذير "فايروس الفتنة والتفكك" الذي ظهر لدى اجتماع القمة الافتراضي في 26 مارس الماضي، مما أعاد إلى الأذهان المناقشات الصعبة والعقيمة إبان فترة 2010 – 2012 وعدم الاستفادة من دروس إدارة الأزمات حيث إن إصرار البعض الميسور على مقايضة المساعدة بتعديل الأنظمة الاجتماعية والصحية ضرب القطاع العام وإمكانيات الدول الوطنية.

لكن بالرغم من الإخفاق حتى الآن في توفير الإجماع على خطة إنقاذ طموحة، تعول المفوضية الأوروبية في بروكسيل على اعتماد خطة طموحة لإعادة إطلاق الدورة الاقتصادية في مواجهة الركود الذي يرتسم في الأفق ويمس كل البلدان معا.

يوجد الاتحاد الأوروبي على المحك في زمن كورونا. ومن شروط ديمومته وإعادة صياغته أن تكون أوروبا وفية لجذورها التاريخية وتبرهن على تضامنها الإنساني فوق كل اعتبار اقتصادي أو نقدي. وإذا كان العكس سيصعب عليها النهوض كما تعودت سابقا. وفي مطلق الأحوال يحبذ تشابك الاقتصاديات في منطقة اليورو وأهمية الوجود ضمن التوازنات الجيوسياسية من أجل إعادة صياغة للمشروع تضمن السيادة الاقتصادية الأوروبية إلى جانب السيادة الوطنية وفقا للدروس المستخلصة من الأزمة الصحية.

لا مناص إذًا من وضع الأنانيات الوطنية جانبا والدفع باتجاه تضامن ملموس في الأوقات العصيبة قبل انهيار الهيكل البيروقراطي وانفراط العقد الأوروبي.

يلوّحون بالموت لنرضى بالسخونة

إبراهيم الزبيدي
كاتب عراقي

حينما تتابع ما ينشره العراقيون على مواقع التواصل الاجتماعي من شتائم لإيران والولايات المتحدة اللتين اخترعتا لهم هذا الصداع المزمن، أو من تعليقات وأحلام وأمنيات مملوءة بالحزن الممتزج بالسخرية وفقدان الصبر، لا بد أن تصيبك القشعريرة خوفا على هذا الشعب العنيد من أن يفقد صبره، ويستكين لحالة اليأس والقنوط هذه، ويموت إيمانُه بحتمية الفرج المنتظر الذي لا عزاء له، ولنا، سواه.

ولكن حين تتأمل ما يرتكبه السياسيون المتمسكون بمواقعهم وأملاكهم ومناصبهم ورواتبهم، والمحاصرون خلف جدران المنطقة الخضراء، من موبقات سياسية ومالية وأخلاقية لا تملك سوى أن تعذر المتشائمين من أصحاب المعارك الحامية على تويتر وفيسبوك، ولا بد من أن تصاب، مثلهم، بالملل من الكتابة، وأن تقرر أن تكسر الدفّ وتتوقف عن الغناء.

ما يحصل في العراق اليوم أمر لا يحتمل، ولا يمكن العثور له على صفة لا في اللغة العربية الفصحى، ولا في العامية أيضا، تنطبق على الحالة التي أوصل فيها هؤلاء دولتنا إليها، وما يحتمل أن يفعلوه بها في قادم الأيام.

بالرغم من أن جميع الذين رشحهتم الكتل الشيعية الحاكمة التي تصف نفسها بالأكبر، بدءا بمحمد شياع السوداني وأسعد العيداني ومصطفى الكاظمي، مرورا بمحمد توفيق علاوي الذي اضطر الرئيس برهم صالح، مكرها، إلى قبول اعتذاره وانسحابه، لم يتوقف زعماء التكتلات والتحالفات الطائفية والمصلحية الحاكمة عن إطالة حلقات هذا المسلسل الممل.

وحين تجرّأ الرئيس برهم صالح والتقط مرشحا على هواه، هو عدنان الزرفي المعروف عنه أنه من سكان خيمة الولي الفقيه، والرفيق القديم الجديد لقادة البيت الشيعي الحاكم، راحت الكتل الحاكمة تغلي غضبا على الرئيس لأنه لم يلتقط أحدا من خدمها المؤتمنين الذين تثق بهم وتطمئن إلى أنه لن يعضّ إخوته في (الجهاد)، تزلفا وتقربا من ماما أميركا.

والحقيقة أنه أصبح أكثر المرشحين لرئاسة الوزراء إثارة للجدل بين مُشكّك في وعوده الأكبر من حجمه، وبين مصدّق، على مضض، باعتباره أفضل السيئين المتوفرين.

وبالتدقيق في ظروف النظام الإيراني المتدهورة الآن يصبح الزرفي الحصانَ الوحيد المتوفر لتطييب خواطر الوطنيين الرافضين للخيانة والعمالة، من جهة، والأميركيين وأحبائهم العراقيين من جهة أخرى، لعله يستطيع أن يجعل دونالد ترامب يرخي حباله، ولو قليلا ومرحليا، عن رقبة النظام.

ورغم أن العراقيين يلعنون الساعة التي وصلت فيها هيبةُ الدولة إلى الدرجة التي يهان فيها بهذه الوقاحة والصفاق كرسي عبدالمحسن السعدون ونوري السعيد وصالح جبر ومحمد فاضل الجمالي وعبدالرحمن البزاز وطاهر يحيى، فإن اللاعب الإيراني المتمرس في التقية يميل إلى الزرفي، رغم علمه بأنه مرفوض من المتظاهرين.

ونقلا عن مقيم في المنطقة الخضراء فإن حقيقة موقف النظام الإيراني من الزرفي هي خلاف المعلن. فهو يريده أن يفوز بالرئاسة، وذلك لقدرته، أو هكذا يبدو، على أن يضحك على ذقون العراقيين والإيرانيين والأميركيين، .

فهو من ناحية يعد المتظاهرين بحصر السلاح بيد الدولة، ومحاسبة الفاسدين، وإقامة سلطة العدل والقانون، ومن ناحية أخرى يغازل الوريث الشرعي لقاسم سليماني المدعو إسماعيل قاآني، ويلوّح له بفكرة تلطيف الجو بين نظام وليّه الفقيه وبين الرئيس الأميركي دونالد ترامب، خصوصا في حالة الاختناق التي يمر بها كلاهما في زمن كورونا والإفلاس ونقمة الملايين.

والمتوقع أن يوعز، أخيرا، لوكلائه، هادي العامري ونوري المالكي وقيس الخزعلي ومقتدى الصدر، بتجرّع كأس السم، والانحناء للعاصفة، والتصويت للزرفي، ولو إلى حين.

ولاستكمال لعبة التقيّة هذه فقد كشف أحدُ قادة الأحزاب الشيعية الحاكمة عن اجتماع في منزل عمار الحكيم تقرر فيه تمرير الزرفي، ولكن بطريقة ملتوية تجعل المتظاهرين الغاضبين، حتى وهم معتكفون في المنازل، يرضون بالحمَى الزرفية خوفا من الأسوأ منها، عملا بالمثل الشعبي العراقي القائل إن "الخائف من الموت يرضى بالسخونة".

والحديث هذه المرة عن اثنين، أحدهما عزت الشابندر الذي وصف المعتصمين في ساحة التحرير بأنهم "قرود"، واتهمهم بـ"ممارسة اللواط وشرب الخمر وتعاطي حبوب التخدير والهلوسة"، والآخر قاسم الأعرجي. وكلاهما من أصحاب السوابق المعلنة والموثّقة.

فقد أعلن عزت الشابندر، بعظمة لسانه، لا خائفا ولا خجلا، أن اسمه، مع قاسم الأعرجي وعبدالحسين عبطان، قد طرح بديلا عن عدنان الزرفي.

أما المخيف فهو أن عددا من المنظرين السياسيين المؤيدين للمعتصمين في ساحات التحرير راح يبشّر، ولو على استحياء، بفكرة أن القبول بالزرفي أفضل من رفضه، خوفا من أن تقع الواقعة ويفرض المتآمرون الشابندر أو الأعرجي رئيسا للوزراء. آه منك يا زمن!

العرب
أول صحيفة عربية صدرت في لندن
1977 أسسها
أحمد الصالحين الهوني

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير المسؤول
د. هيثم الزبيدي

رئيس التحرير والمدير العام
محمد أحمد الهوني

مدراء التحرير
مختار الدبابي
كرم نعمة
حذام خريف
منى المحروقي

مدير النشر
علي قاسم

المدير الفني
سعيدة اليعقوبي

تصدر عن
Al-Arab Publishing House
المكتب الرئيسي (لندن)
The Quadrant
177 – 179 Hammersmith Road
London, W6 8BS, UK
Tel: (+44) 20 7602 3999
Fax: (+44) 20 7602 8778

للإعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

www.alarab.co.uk
editor@alarab.co.uk

العراق ملف إيراني بهوامش أميركية

فاروق يوسف
كاتب عراقي

يشرف فيلق القدس التابع للحرس الثوري الإيراني على الملف العراقي. وهو ما يضفي على الزيارة السرية الأخيرة التي قام بها إسماعيل قاآني أهمية خاصة.

خليفة قاسم سليماني أجرى لقاءات مع أتباعه العراقيين الذين لن يتمكن من بناء قواعد ثقة متبادلة معهم لأسباب ذاتية وموضوعية.

على المستوى الذاتي فإن الضبط الذي كان يمارسه سليماني لا يتصل بمنصبه زعيما لفيلق القدس بقدر ما كان انعكاسا لتاريخ من العلاقة الشخصية التي جمعته بزعماء الميليشيات العراقية الموالية لإيران.

أما موضوعيا فإن هناك تحولات كبرى قد طفت على السطح كان لا بد أن تنعكس على الوضع في العراق، منها ما يتعلق بإيران التي هي اليوم في أكثر مراحلها ضعفا وهي تواجه عدوّين شرسين هما العقوبات الأميركية وفايروس كرونا. ومنها ما يتعلق بالعراق الذي يُتوقع أن يشهد انهيارا اقتصاديا غير مسبوق بسبب انخفاض أسعار النفط وهو ما قد يؤدي إلى انفجار شعبي في حال اضطرت الحكومة إلى اتخاذ إجراءات تضر بمصالح ذوي الدخل المحدود الذين صاروا على وشك الانزلاق إلى هاوية الفقر.

في هذه المرحلة إيران ليست إيران والعراق ليس العراق. غير أن إيران لا تزال تمسك بخيوط اللعبة السياسية في العراق. لا لشيء إلا لأن مرحلة ما بعد الاحتلال (منذ 2003 وحتى اليوم) لم تشهد قيام دولة في العراق ولم تكن هناك أيّ محاولة في ذلك الاتجاه.

في البدء لم يكن الأميركيون متحمّسين لقيام تلك الدولة بدلا عن الدولة التي حطموها والتي لم يعد في الإمكان استنهاضها. أما حين استلمت الأحزاب مقاليد السلطة ومفاتيح البنك المركزي فإنها محت الفكرة وقلعت جذورها وصار العراق دولة على الورق الرسمي فقط. أما الحيز الجغرافي فقد كان مخترقا وسيظل كذلك.

هناك قوات متعددة الجنسيات وميليشيات وتنظيمات مسلحة وفصائل مجاهدين وعشائر مدججة بالسلاح تحافظ على مواقعها في جبهات، يمكن أن تشتعل في أيّ لحظة. فالعراق هو أرض حرب، تتجلّى من خلال مشاهد مختلفة يتبادل فيها الأعداء الأدوار.

في هذه المرحلة إيران ليست إيران والعراق ليس العراق. غير أن إيران لا تزال تمسك بخيوط اللعبة. لا لشيء إلا لأن مرحلة ما بعد الاحتلال لم تشهد قيام دولة في العراق

ذلك ما وهب إيران فرصة الهيمنة المباشرة على العراق في ظل تخلّ أميركي واضح عن المسؤولية. فالأميركيين الذين أعلنوا عن احتلالهم العراق في مجلس الأمن بشكل علني لم يحافظوا عليه بما ينسجم مع القانون الدولي حين اكتفوا بتدميره وتسليم شعبه للضياع.

لقد ترك الأميركيون الملف العراقي على الطاولة التي امتدت إليها يد إيران. لذلك كان زعيم فيلق القدس السابق قاسم سليماني هو الحاكم الحقيقي للعراق بسبب تكليفه من قبل خامنئي بالملف العراقي. وهو ملف لا يتضمن أيّ فقرة لها علاقة بمصائر العراقيين بقدر ما يعنى بمصائر الأحزاب والميليشيات الموالية لإيران.

أعتقد أن الفكرة صارت واضحة. فالعراق الذي أداره سليماني في وقت سابق لم يكن دولة إنما هو ملف. وفي سياق ذلك المعنى يمكن النظر إلى الانتخابات المتكررة التي لوّث العراقيون أصابعهم بالحبر البنفسجي من أجل المشاركة فيها على أنها مجرد استعراضات تهريجية، ساهمت الولايات المتحدة من خلالها في إضفاء شرعية زائفة على الهيمنة الإيرانية. كانت تلك الانتخابات هدايا الديمقراطية الأميركية إلى إيران.

حتى في حالة ضعفها لا تزال لإيران اليد العليا في العراق. فالمنطقة الدولية (الخضراء) في بغداد التي تتوسّطها السفارة الأميركية هي مقر السلطة الذي لن يجرؤ أحد على الاقتراب منه. ذلك يعني أن عملاء إيران يحكمون العراق من خلال محمية أميركية.

من المحتمل أن تصل الخلافات بين الأحزاب إلى مرحلة التنافر غير أن أحدا منها لن يعلن الحرب على الآخر. ذلك نجاح لقاآني غير أنه يحدث بسبب قناعة الجميع بأن المركب الأميركي الذي حملهم إلى العراق لا يزال في إمكانه أن ينقذهم إذا ما تعرضوا للخطر.